المشرحة

مَنْ مِنَّا يدرك كل الحقيقة وكنهها!

ربما تراودنا بعض الأفكار والمعطيات، فنظن أننا توصلنا إلى جوهر الحقيقة لنتوقف أمامها، ربما قليلًا أو كثيرًا، بحسب عمق تفكيرنا قبل أن نشيح عنها بعيدًا، حتى لا تجرفنا نحو الهاوية، وربما أو بالتأكيد نتعمد الهروب خوفًا منها أن تحاصرنا أو تستحوذ على عقولنا.

المرة الوحيدة التي أدركت فيها أنني أمام حقيقة مؤكدة وثابتة، كانت رائحة الموت تحيط بي من كل الزوايا، ومن كل حدب وصوب، ربما ينتابكم الفضول لمعرفة ما مر بي وما عايشته وما جعلني ما أصبحت عليه الآن، رغم أن ما حدث لي ظل حبيس عقلي وخيالي ولم يغادرني إلا أنني سأفصح عنه وسأخبركم.. نعم سأخبركم!

ذات ليلة شتوية من إحدى ليالي شهر فبراير شديد البرودة، وبأول مناوبة عمل ليلية لي كوني حارسًا أمنيًّا على المشرحة، ووسط مخاوفي الجمة، وتلك الهواجس التي تعبث بعقلي، بدأت قصتي والتي جعلتني أنظر إلى الحياة من منظور آخر ومغاير لما قبلها.

اسمي عماد، شاب يشبه الملايين من الشباب الذين ماتت أحلامهم قبل أن تُولد حتى أيقنوا أن الأحلام رفاهية وإثمًا يجب التطهر منهما، أعمل بشركة أمن ومن وقت لآخر يتم توزيعنا حسب احتياجات العمل، سواء بالبنوك أو بالمولات التجارية، حتى جاء ذلك اليوم الذي صادف حظي العاثر وتم توزيعي لأناوب بالمشرحة.

كنت مضطرًا لقبول هذا العمل بعد أن يئست من الحصول على عمل يناسب مؤهلي كوني خريج كلية التجارة، فكان من المفترض أن يشاركني مناوبتي الليلية – كما أخبروني – عم توفيق، وهو يعمل بالمشرحة منذ زمن بعيد عاملًا لاستلام الموتى وتجهيزهم للتشريح، حسب رغبة الطبيب الشرعي، ومن ثَمَّ وضعهم داخل الثلاجة حتى يتم تسليمهم لذويهم أو دفنهم بمقابر الصدقة، إن لم يستدل على أقارب لهم.

من المفترض أن تبدأ مناوبتي من الثامنة مساءً وحتى الثامنة صباحًا، وما إن وصلت وبدأت مناوبتي بالمشرحة، حتى غادر زميلي مبتسمًا وهو يقول: "من حسن حظك أنه لا يوجد بثلاجة المشرحة سوى ثلاث جثث ولا شيء على طاولة التشريح".

ما إن أنهى عبارته وغادر حتى انتابتني قشعريرة سرت بجسدي من شعر رأسي حتى أخمص قدمي.

تجولت ببصري بالمكان لأشاهد المشرحة من الخارج، وهي مبنى بالدور الأرضي منفصل عن مبنى المستشفى، وبعيدًا عن أقسامه المختلفة وهناك لوحة كتب عليها بخط باهت (المشرحة).

مددت يدي المرتعشة لأفتح الباب الخارجي دون أن أجرؤ على الدخول، ولكن كان هذا كفيلًا لأشاهد ممرًّا طويلًا بمنتصفه غرفة بداخلها ثلاجة الموتى، ملحق بها غرفة صغيرة بها سرير صغير وفراش

من المفترض أن أقضي ليلتي بداخلها، ولكن هيهات أن يحدث ذلك.. كما توجد منضدة عليها هاتف أرضي.

حفيف أوراق الشجر مع تلك اللفحة من الصقيع برقبتي وأذني كانت كفيلة لتجعلني أنتفض وأنا أعود للخلف لأجلس على ذلك المقعد المواجه للمشرحة بالجهة المقابلة.

ما أسوأ الوقت عندما يتلاعب بنا! نعم هو يتلاعب بنا، وإلا فكيف نفسر مرور ساعات السعادة وأيامها كلمح البصر، بينما يتوقف الزمن بلحظات الألم لتتحول الثواني إلى دهر طويل ليس له من فوات؟

وها أنا كل دقيقة أنظر لساعتي لأرى عقاربها جامدة لا تتحرك، كم وددت أن تمر الساعات ليأتي عم توفيق بموعد مناوبته لأشدد به أزري وليعيد لي ثباتي الانفعالي!

ولكن هيهات!

الساعة الآن تقترب من التاسعة، وعم توفيق لم يأتِ حتى الآن وووو...

هل ما أسمعه حقًّا هو صوت الهاتف؟

اقتربت من الباب الخارجي أكثر ليصلني رنين الهاتف مدويًا!

تُرى من يتصل الآن!

هل هو مديري يريد التأكد من وجودي أم أن هناك من يريد الإبلاغ عن حادث!

توقف الرنين للحظات ليعود مرة أخرى، وأنا أقف حائرًا بل خائفًا وعاجزًا عن التقدم للرد على الهاتف، تنفست الصعداء عندما توقف الرنين، وأنا أردد أين أنت يا عم توفيق ولماذا تأخرت عن موعدك و...

يا الله! كم أكره هذا الصوت! كان الرنين يتردد صداه بعنف ليرج المشرحة بأكملها ومن قبلها قلبي وعقلي.

فتحت الباب على مصراعيه وبحثت عن حجر ضخم لأضعه خلف الباب، حتى لا يُغلق من خلفي بعد أن قررت مضطرًّا ومرغمًا أن أدخل وأجيب على الهاتف، قرأت كل ما أحفظه من آيات قرآنيه وأنا أتقدم بخطوات ثقيلة نحو غرفة المشرحة، وسط خيالات وهواجس تجتاحني بعنف، وأنا أسير بذلك الممر ذي الإضاءة الخافتة، حتى إن ظلي تحول لعملاق ضخم: مرات يتقدمني ومرات يلاحقني، وكأنه يريد التهامي، ومن بعيد يصلني حفيف الشجر مصحوبًا ببعض موجات البرق لتتشكل لوحة سريالية عبثية تكبل خطواتي المتثاقلة.

بعد جهد وثوانٍ مرت كالدهر، وصلت إلى غرفة الهاتف، وما إن مددت يدي المرتعشة لأرد على الهاتف حتى توقف الرنين فجأة.

تنفست بعمق واستدرت بسرعة لأعود إدراجي، وما إن فعلت حتى عاود الهاتف رنينه مرة أخرى لأتجمد مكاني.

تناولت سماعة الهاتف وأنا أجيب بصوت مرتعش: "من معي"؟

أتاني الصوت لاهثًا معاتبًا: "أين أنت يا ولدي"؟

مرة أخرى أعدت السؤال: "من معي"؟

ـ "أنا عمك توفيق عامل المشرحة".

تنفست الصعداء وأنا أقول: "أين أنت يا عم توفيق؟ ولمَ تأخرت ولم تحضر إلى الآن"؟

ـ "معلهش يا بني حصلت ظروف ومش هقدر أناوب النهاردة".

ـ "إزاي يا عم توفيق! ده أول يوم ليا هنا وأنا مرعوب".

- "مرعوب من إيه بس؟ خلي قلبك جامد، وبعدين أنا عرفت إن ثلاجة المشرحة مفيهاش غير ثلاث جثث وتسليمهم بكره الظهر، يعني تنام وتتغطى والصباح رباح".
- "أنام وأتغطى إيه بس! شكله يوم مش فايت وشكلي كده هسيب المكان وأروح".
- "مينفعش يا بني، ممكن توصل حالات بأي وقت، وممكن يحضر الطبيب الشرعي بأي لحظة، ولو أنا وإنت مش موجودين هنروح في داهية وهيتقطع عيشي".
- "طيب حاول تيجي"!
- "هحاول بس موعدكش".

أنهيت المكالمة بيأس، وعدت إدراجي مسرعًا، وكأن أشباح الكون كله تلاحقني وتطاردني.

تُرى كيف ستمر هذه الليلة وأنا وحيد إلا من خيالاتي وهواجسي وثلاث جثث! لا أدري كيف تحول هذا الكون الشاسع إلى ذلك الحيز الضيق، بل كيف استطاع خيالي اختزاله بتلك المشرحة! كيف يمكن اختزال كل شيء بشيء واحد!

لم يكن أمامي سوى قتل الملل حتى لا يقتلني الخوف، فتحت الهاتف ووضعت سورة يوسف بصوت الشيخ ماهر المعيقلي، والذي أعشقه بلا حدود، ربما تهدأ روحي المضطربة ولو قليلًا.

سؤال مفاجئ قفز إلى ذهني بغته: هل أنا جبان! هل ما أشعر به الآن خوف غريزي وطبيعي أم مبالغ فيه حد الجبن!

لم أجد إجابة واضحة وصريحة لسؤالي، ولكنني وجدت مبررًا لخوفي وانفعالاتي، مبررًا ذلك بأنها ليلتي الأولى بمثل هذا المكان.. نعم كنت أحتاج إلى مبرر حتى لا أفقد رباطة جأشي واحترامي لذاتي.

نظرت لساعتي، والتي كانت تشير عقاربها إلى منتصف الليل إلا قليلًا، ازداد الطقس برودة، وشعرت بأوصالي وأطرافي تكاد تتجمد من برودة الطقس وذلك الصقيع.

هنا طرأت لي فكرة مباغتة ظننتها صائبة، ألا وهي الدخول إلى المشرحة، وإحضار البطانية من فوق الفراش، والعودة مرة أخرى حيث أجلس بالخارج.

دقائق مملة ورتيبة وثقيلة مرت عليّ وأنا في حالة من الصراع بيني ونفسي.

كان الظلام يحيط بي من كل صوب وجانب تقريبًا، إلا من ضوء القمر، والذي يأتي على استحياء بضوئه الخافت؛ ليجعل لكل شيء على الأرض ظلًّا يتشكل حسب نوعه، كالأشجار والمباني، ناهيكم عن صوت نقيق الضفادع، والذي يأتي من باحة المستشفى المقامة بجوار تلك الترعة، والتي تنمو عليها بعض الحشائش والنباتات، مما جعلها مرتعًا للحشرات والزواحف، وبعض الأصوات تتداخل لتعطي مزيجًا من الفحيح والطنين.

لا أدري لماذا يبدو كل شيء هذه الليلة استثنائي، حتى إنني ظننت أنني بكابوس سأفيق منه قريبًا، وكم تمنيت هذا حقًّا! وما عزز هذا التصور بخيالي نباح الكلاب الحاد والمتواصل، حتى إنني ظننت أن الكلاب تحاصرني، بل وتراقبني بانتظار اللحظة الفارقة والحاسمة للهجوم والانقضاض على جسدي، ولكن سرعان ما نفضت ذلك الهاجس عن تفكيري حتى لا أجن أو أفقد عقلي.

دقت الساعة الثانية عشرة ليلًا ومعها أعلن الهاتف عن قرب نفاذ البطارية، وكأن هذا ما ينقصني بهذا الوضع المزري.

أغلقت الهاتف لأحتفظ بما تبقى من شحن بداخله لاستعماله وقت اللزوم.

في غضون ذلك كنت قد حسمت أمري، أنه مما لا بد منه ولا مناص أو مفر أن أدخل بسرعة وأجلب الغطاء ليعينني على هذا الشتاء القارص، وليعيد لأطرافي الدفء المفقود.

تقدمت للأمام بخطوات متثاقلة شاخصًا بصري نحو الباب الخارجي.. فتحت الباب ولم أنسَ وضع ذلك الحجر من خلفه من الداخل؛ ليظل مفتوحًا لحين تنفيذ المهمة وعودتي من داخل غرفة الثلاجة.

نظرت إلى الخلف وهناك ألف هاتف وهاتف يدعونني ويلحون عليّ للعودة من حيث أتيت.

حدثت نفسي قائلًا وكأنني أوبخها: ما بك يا رجل! منذ متى كنت بهذا الجبن! ألا تخجل من نفسك! منذ متى وأنت تخشى الموت! بل ومنذ متى تخشى الأموات!

ألا لعنة الله على الشيطان والذي تكفل بالإجابة عن سؤالي بأن عرض على عقلي وخيالي تلك المناظر البشعة، والتي مرت عليَّ من قبل للقتلى من خلال حوادث الطريق أو حتى الحرائق.

حركت رأسي يمينًا ويسارًا وكأنني أمحو هذه الصور عن رأسي متمتمًا بسورة الناس.. تشجعت وتقدمت أكثر حيث أصبح لا يفصلني عن باب المشرحة سوى أمتار قليلة.. ما زلت أردد سورة الناس وأخذت أردد قوله تعالى: "الذي يوسوس في صدور الناس من الجنة والناس" مرات عدة حتى وصلت أخيرًا لمقبض غرفة المشرحة، والذي أدرته بتوجس وخوف ودلفت إلى الداخل.

كانت غرفة الهاتف على يميني بداخلها الفراش والغطاء، وعلى يساري طاولة التشريح، بنهايتها ثلاثة مقاعد.. وكم حمدت الله أنها فارغة ولا يوجد عليها أي جثث للتشريح بهذا اليوم!

كانت ثلاجة الموتى على يميني بعد غرفة الهاتف مباشرة، وبها الكثير من الأدراج، وكل درج منها من المفترض أن يحتوي على جثة واحدة.

كان الصمت والهدوء يغلفان المكان، مما أضاف له الكثير من المهابة والخوف.

تقدمت بهدوء نحو غرفة الهاتف، ومددت يدي لأتناول الغطاء بهدوء وروية، وما كدت أفعل حتى سمعت ضجيجًا يأتي من الخارج ليقطع ذلك الصمت ولينسف هذا الهدوء، والذي بدا وكأنه الهدوء الذي يسبق العاصفة.

كان مصدر الصوت والضجيج يأتي من الباب الخارجي؛ حيث وضعت الحجر خلفه وأول ما تبادر لذهني هو الرياح والهواء، وقد ظننت أن الباب قد تحرك، مما تسبب بهذا الضجيج.

خرجت من غرفة الهاتف وتقدمت نحو باب غرفة الثلاجة، لأرى ما يحدث وما كدت أفعل حتى تسمرت قدماي، وأصاب الشلل كل أطرافي وحواسي، حتى فقدت النطق للحظات، فمن حيث أقف بمكاني وعلى بعد عدة أمتار وعلى الباب الخارجي من حيث أتيت كان يقف حيوان ضخم لم أرَ له مثيلًا بحياتي من قبل، حتى إنني لم أتبين إن كان ذئبًا أو كلبًا ضخمًا.

كان جسده الضخم يسد مدخل الباب بالكامل، وكانت عيناه الحمراوتان وزمجرته ولعابه الذي يسيل من بين شفتيه كَفِيلِينَ بإصابتي بصدمة عصبية.. تيبست على إثرها كل أطرافي.

لم يستمر ذلك سوى ثوانٍ لأستعيد تفكيري.. الآن فقط أدركت هذا المأزق الذي أصبحت فيه، وشعرت بخطورة موقفي، فثلاجة الموتى خلفي وذلك الكائن المتوحش أمامي.. وقبل أن أجد مخرجًا لي من تلك الورطة كان ذلك الحيوان يقطع الأمتار قفزًا متوجهًا نحوي، وعيناه تحدقان بعيني مباشرة، وهو بطريقه لينقض عليَّ، وبحركة غريزية وسرعة استجابة لم أكن أظن يومًا أنني أملكها، وبفضل ما تدفق لجسدي من أدرينالين عدت للخلف، وأغلقت الباب من خلفي بقوة وعنف؛ لأشعر باصطدام هذا الوحش بالباب بقوة وعنف، وصوت أنينه يخترق أذناي، وأنا ما زلت أشعر بالصدمة والرعب يسيطران على كل حواسي مما حدث للتو.

وقفت بمنتصف الغرفة وعيناي لا تبرحان ثلاجة الموتى، وعقلي خارجها يفكر بذلك الخطر الجاثم أمام الباب.. نظرت إلى ساعتي والتي تقترب من الواحدة صباحًا، مما يعني أنه يتبقى لي سبع ساعات كاملة أقضيها بجوار ثلاجة الموتى، وباب ضعيف ومتهالك يفصلني عن وحش يريد افتراسي.. فهل يمكنني الصمود!

يقولون إنه لكل فعل رد فعل مساويًّا له في القوة وموازيًا له في الاتجاه، ولكنني –ولأول مرة بحياتي– أواجه هذا الموقف العصيب لأجد نفسي عاجزًا، بل ومسلوبَ الإرادة لأقوم بأي رد فعل قوي أو حتى ضعيف.

ولشدة عجزي وخوفي وبغريزة فطرية وعفوية جلست القرفصاء واتخذت وضعية الجنين ببطن أمه، وكأنني أود العودة بالزمن للوراء.. دفنت رأسي بين يدي وأغمضت عيناي ظنًّا مني أنني بهذه الطريقة سأهرب من تلك الورطة، وقد بدت لي أنها طوق النجاة الوحيد.. حتى وإن كانت نهايتي، فأنا لا أود رؤيتها بأم عيني.. أود أن ينتهي كل شيء سريعًا وبلا ألم.. ربما يمكنني احتمال الألم، ولكنني لا أقوى على رؤيته أو مواجهته.

لست وحدي من يفعل ذلك.. الكثيرون يهربون ولكل منهم طريقته في الهروب من مخاوفه وهواجسه.

مرت الثواني ببطء مميت، كنت أسمع دقات الساعة وكأنها أجراس كنيسة أثرية تقرع لصلاة يوم الأحد.. الأدهى من ذلك والأَمَرُّ أنني أسمع دقات قلبي وهي تدق بعنف، حتى إنني بت أسمع نبضات عروقي أثناء سريان الدماء بشراييني.

أتراني أصبحت أمتلك الحاسة السادسة!

لماذا صفت كل حواسي بالأخص حاسة السمع لديَّ والتي أصبحت تنقل لي أصوات هذا الكون الشاسع بشفافية.

إلى متى سأظل هكذا!

هناك.. ومن داخلي وبعمق إدراكي.. هاتف يناديني ويلح عليَّ بإصرار غريب وعجيب.

هيا! يجب أن تنهض وتقف لتواجه كل مخاوفك وهواجسك، والتي –ومما لا شك فيه– هي نتاج خيالك وعقلك المتخم بقصص عتيقة وبالية تربينا عليها صغارًا.

فتحت عيناي وأنا بنفس وضعية الجنين، وليتني ما فعلت، لأنني فتحتهما وكأنني لم أفتحهما، فأنا لم أرَ أي شيء، وكأنني دخلت بفوهة الظلام الأبدي.

بحركة عفوية ولا إرادية مددت يدي لجيوبي بحثًا عن هاتفي لإشعال المصباح ليضيء لي المكان بعد أن انقطع التيار الكهربائي بفعل الشتاء والرياح، وهذا ما رددته بيني وبين نفسي؛ لأجد سببًا مقنعًا حتى لا تزداد مخاوفي وتتغول، ويؤججها خوفي وهلعي حتى تلتهمني.

كنت أحتاج لسبب أو مبرر وحيد.

وما إن عثرت على هاتفي، حتى قمت بتشغيله، وما كدت أفعل حتى سمعت أسوأ نغمة يمكن سماعها بمثل هذا الموقف، وهي نغمة الإطفاء لنفاذ البطارية.

نهضت مستندًا على الجدار مطأطئ الرأس، مرتعدَ الأوصال، أكاد أغرق في عرقي رغم برودة هذه الليلة الشتوية القارصة.

اقتربت من باب الغرفة، وأرهفت السمع وأنا أطرق على الباب، وما إن فعلت ذلك حتى سمعت زمجرة قوية تأتي من الجهة الأخرى للباب، جعلتني أتراجع للوراء وبمنتصف الغرفة تمامًا.

مع مرور الوقت تعودت على الظلام، فتجولت ببصري مرة أخرى لأرى ثلاجة الموتى بأدراجها المتعددة، وهنا طرأت لي فكرة مجنونة، وهي البحث عن أي بطارية أو شموع بداخل أدراج ثلاجة المشرحة البالغة (١٣) درجًا، وهي مقسمة إلى خمسة جهة اليمين، ومثلهم جهة اليسار، وثلاثة باقية بالأسفل. فقد يكون عم توفيق قد وضعها لمواجهة أي ظروف طارئة، ولكن هل أستطيع ذلك بالفعل؟

بالنهاية قررت أن أفتح بعض الأدراج وليحدث ما يحدث.

اقتربت بخوف ووجل وتوجهت من جهة اليمين وبأيدٍ مرتعشة فتحت أول درج والذي كان خاليًا تمامًا من أي شيء.. شجعني ذلك على فتح درج آخر والذي كان أيضًا كسابقه.. تجرأت أكثر وأصبح الأمر رويدًا رويدًا اعتياديًّا، ففتحت كل الأدراج العلوية والسفلية من ناحية اليمين، وكانت جميعها خالية من أي شيء.

توجهت جهة اليسار وبدأت من الأعلى وأنهيت أيضًا كل الأدراج ويدي ترتعش من قبلها قلبي.

نظرت نحو الثلاجة، والتي لم يتبقَ بها سوى ثلاثة أدراج سفلية، وهنا توقفت لبرهة ربما لأستجمع قواي المنهكة، ولأستعيد معها كلمات زميلي بالمناوبة السابقة والذي أخبرني أنه لا يوجد بالمشرحة سوى ثلاث جثث.

أتراني لم أسمعه جيدًا، أو ربما هو قصد فقط أن يخيفني ولا توجد أي جثث؟

ولكن مهلًا عندما تحدثت مع عم توفيق بالهاتف هو أيضًا أخبرني عن وجود ثلاث جثث وسيتم دفنها ظهر الغد.

يا الله! كم أصبح الأمر أكثر رعبًا وخوفًا، فالآن أصبحت أعلم مكان الجثث بالتحديد.

ما زلت أحدق بالأدراج الثلاثة وأنا بمواجهتها مباشرة، وقد تعدى الأمر لدي البحث عن بطاريات أو شموع وأصبح لدي فضول غريب لفتح الأدراج والنظر بداخلها.. ربما كان الأمر تحديًا من نوع خاص.. تحديًا لمخاوفي وهواجسي ومواجهتها.

أخذت نفسًا عميقًا وتنهدت بعد أن زفرت لأخرج كل انفعالاتي، وأنا أمد يدي وأفتح الدرج الأول من الثلاثة.

ما هذا؟ وهل يعقل ذلك؟

هذا الدرج أيضًا خالٍ ولا توجد به أي جثث!

فتحت الدرج الثاني والثالث وكانا كسابقهما خاليان من أي شيء!

إذًا أين ذهبت الجثث الثلاث! هل تبخرت! هل يعقل أنها بالثلاجة ولم أرها! هل كذب زميلي عليّ! ولماذا! هل كذب عم توفيق! ولكن.. لِمَ قد يفعل ذلك!

أنا الآن أقف بمواجهة ثلاجة الموتى، ذات الجسم المعدني المصقول، والذي يشبه المرآة ببعض الأحيان، حتى إنك تستطيع رؤية ملامحك من خلاله.

ولكن وبهذا الظلام الحالك لم تكن ملامحي هي من رأيتها، إنما رأيت ما جعل شعر رأسي يقف والدماء تتجمد بعروقي، فلم تكن الثلاجة تعكس لي وبوضوح تام سوى ثلاث هالات بيضاء تحدق بي وبعمق.

تسمرت أقدامي بالأرض لأتحول لجبل راسخ لا يستطيع الحراك، أو مبارحة مكانه.

استجمعت ما تبقى لدي من أنفاس وبقلب واجف وروح منهكة وباستسلام كامل ويأس استدرت.. وما كدت أفعل حتى رأيت أسوأ كوابيسي قاطبة.

فعلى بعد أمتار قليلة مني، وخلف طاولة التشريح مباشرة، وفوق المقاعد الثلاثة، وبهذا الظلام الحالك والليل الداكن، كانت تواجهني أسوأ مخاوفي وهواجسي وبطريقة مسرحية ثلاثية الأبعاد.

نعم! ما أراه بأم عيني ليس وهمًا من نسج خيالي أو نتاجَ خوفي، بل أنا على يقين أنني أشاهد ثلاثة جثث بالأكفان البيضاء بددت هذا الظلام الدامس.

أنا الآن أصبحت بلا حول ولا قوة بانتظار ما ستسفر عنه اللحظات القليلة القادمة.

اسمي عماد!

لا أختلف كثيرًا عن الكثيرين منكم.. فأنا من ترك الزمن أثاره على ملامحي، ونحتت الهموم بوجهي أوكارها حتى أصبحت كهلًا، وأنا ما زلت بنهاية العقد الثالث من عمري.

كيف أتيت إلى هنا؟

وأنا من أولئك الذين لا يدخلون بيوتهم حتى ينيرون كل الأضواء خوفًا من أن يلتهمهم الظلام أو تتخطفهم الأشباح.

نعم أنا مثلكم تربيت على تلك القصص والخرافات التي تتحدث عن الغول وأبو رجل مسلوخة.. وأيضًا عن عفاريت الموتى الذين ماتوا بالقتل أو الانتحار.. عن حكايات الأشباح التي تسكن المقابر وتعترض المارة بالظلام.. حتى الخوف من خزانة الملابس ومن أسفل الفراش، وكأن هناك من يختبئ بهما بانتظار أن أطفئ الأضواء فيحل الظلام ليبتلعني.

أنا عشت طفولتي خائفًا، فكل ما يحيط بي يمثل مصدر خوف ورعب وفزع.. تربيت على قصص الأشباح وغيرها، والتي سكنت عقلي وأصبحت تقتات على روحي حتى تغولت لتلتهم كل حواسي.

تربيت على الكثير من اللاءات: لا تفعل.. لا تذهب.. لا تسمع.. لا ترَ.. لا تسأل.. لا تفكر.

كثيرًا ما أشعر أنني روحَيْن وعقلَيْن وفكرَيْن منفصلَيْن يجمعهم جسد واحد.

نعم أنا الشجاع حد التهور والضعيف حد الجبن.

أنا الإيجابي عندما يتعلق الأمر بغيري والسلبي فيما يخصني.

أنا من أخشى المسير منفردًا، حتى وإن كان طريق الصواب، وأفضل المسير ضمن القطيع، حتى وإن كان طريق الهلاك.

هذا أنا الشيء ونقيضه بنفس الوقت.

أنا لست هنا وتلك الجثث ذات الأكفان البيضاء ليست حقيقية، إنما هي من نسج خيالي المتخم بالخرافات والخزعبلات.

نعم أنا داخل كابوس مزعج، وعندما أفيق من نومي سأردد تلك العبارة الشهيرة (خيرًا.. اللهم اجعله خيرًا)!

هذا تصور جيد ويناسبني، وما دام كذلك فلا يضيرني شيء إن واجهت تلك المخاوف والخرافات، سأستدير.. وعندما أفعل لن أجد أي شيء مما أخشاه أو أخاف منه.. تنفست بعمق وقمت بالعد من واحد لثلاثة.

كعجوز بالعقد التاسع من عمره، قاومت لأستدير، وما كدت أفعل حتى تسمرت أقدامي وجحظت عيناي وأنا لا أكاد أصدق ما أراه أمامي مباشرة.

هل تذكرون تلك الطاولة والمقاعد الثلاثة؟

نعم إنها طاولة التشريح

هل فكرت بشعورك عندما تطالع ثلاثة أكفان بيضاء فضفاضة تغطي ثلاثة أجساد!

نعم ثلاث جثث ترتدي الأكفان البيضاء.. بينما منطقة الرأس ليست سوى قناع يخفي ما خلفه، ما عدا العينين، والتي كانت فارغة ومجوفة، تحيط بها الهالات السوداء من تحت الجفون كمن جفاه النوم منذ سنوات.

أصبح الأمر أكثر جموحًا وجنونًا.

- هل يعقل أن يكون هذا من تأثير الحشيش! ولكنني لا أشرب الحشيش.. عدم شربي للحشيش ليس تدينًا أو حتى خوفًا من القانون، ولكن وببساطة أنا لا أمتلك ثمنه.

هل جربت ذلك الإحساس عندما تصبح أمام خيارين أحلاهما مرٌّ!

أنا الآن محاصر من جميع الجهات: فمن ناحية هناك ذلك الوحش الجاثم أمام الباب ينتظر خروجي لافتراسي، ومن جهة أخرى ثلاث جثث ترمقني بريبة وحذر.

حتى رفاهية الصراخ لا أملكها.. ناهيكم عن تلك الأمنية بالغياب عن الوعي أو الدخول بغيبوبة تنجيني من هذا المأزق.. ولكن مهلًا لماذا يحدقون بي هكذا!

بل لماذا ينظرون لي بريبة وشك!

أتراهم يخشون وجودي كما أخشاهم!

وما كدت أتحرك ناحية الغرفة الملحقة بالمشرحة، والتي تحتوي على الفراش حتى لمحتهم يتحركون نحوي مباشرة.

الآن فقط علمت كيف يقف شعر الرأس، وكيف يتجمد الدم بالعروق، وكيف تتحول الصرخات إلى صوت مبحوح وأنات مكتومة.

كانوا يلتفون من حولي، وكأنني كائن فضاء غريب أو شبح.

ما هذا! هل يتحدثون حقًّا!

نعم بـلا شك يتحدثون، فأنا أسمع أحدهم يتحدث وهو يشير إليّ قائلًا: "يبدو أنه يرانا".

رد عليه الآخر بتعجب: "ولكن كيف ذلك"!

بينما أشار إليّ الثالث قائلًا بنبرة صارمة: "هل يمكنك رؤيتنا"؟

عبثًا أحاول ابتلاع ريقي الجاف، ولكن دون جدوى

كرر سؤاله هذه المرة بغضب:

ـ "هل ترانا"؟

أنا بصوت مرتعش وبخوف:

ـ "نعمممممم".

اقترب أحدهم مني، وهو يقول: "تقدم"!

تسمرت بمكاني ليتقدم هو، وما كاد يفعل حتى تجاوزني، وكأنني هواء.. نظروا لبعضهم وهم يقولون: "نعم! ذلك يفسر الأمر".

ـ "أي أمر ذلك الذي يتحدثون عنه"!

لا أنكر أن الأمر قد أثار فضولي وبشدة، حتى إن الفضول لديّ قد تفوق –ولأول مرة منذ حضوري– على خوفي وفزعي، أدركت أنهم يروننني كما أراهم، وما دام الأمر كذلك، فبالتأكيد سيسمعونني كما أسمعهم.

هنا استجمعت كل شجاعتي لأقول بصوت واهن وبلكنة تشبه الهمهمة

ـ "عن أي أمر تتحدثون؟ وما ذلك الأمر الذي يفسره ما حدث"؟

توجه أحدهم نحوي ليجاورني متوجهًا نحو الغرفة الصغيرة، وهو يشير إليّ لأتبعه، تبعته باستسلام ليتوقف أمام زجاج النافذة، وهو يشير إليّ لأنظر حيث أشار.

ـ "رباه! ما هذا الذي أراه"؟

ولكن كيف! وهل يعقل ذلك!

كالمغيب تبعت الشبح.. ما إن وصلت لزجاج نافذة الغرفة الملحقة بثلاجة المشرحة، حتى أصابتني الدهشة والحيرة في آن واحد.. فقد وجدت عم (توفيق) مستلقيًا على الفراش يغط في نوم عميق.

نعم هذا ما أراه الآن، ويبدو لي واضحًا جليًّا.. ولكن كيف! ومتى! ولماذا!

استدرت وقد زال بعض خوفي وهلعي، لتحل محلهما الحيرة والتساؤلات.. كنت أود الاستفسار من ذلك الشبح الذي أشار إليّ لأرى عم توفيق وهو مستلقٍ فوق الفراش.

وما كدت أفعل وأنا ما زلت أهذي وأردد بحيرة وقلق (كيف)! حتى عاودتني الحيرة مرة أخرى، فقد عاد الشبح لينضم لرفاقه.

أصبح الأشباح الثلاثة يقفون مجتمعين بجوار طاولة التشريح، ولكن –ولتزداد حيرتي– يتجاهلونني تمامًا، وكأنني لست موجودًا وكأن أحدهم لم يتحدث معي أو يُشِرْ نحوي.

بجرأة أو تهور أحسد عليهما، صرخت فيهم قائلًا:

ـ "أين أنا؟ من أنتم؟ وماذا تريدون مني"؟

كررت كلماتي بمزيج من الخوف والانفعال ولم يتغير شيء.. يا الله! ما هذا! إنهم لا يسمعونني وكما يبدو فهم أيضًا لا يروننني.

ولكن مهلًا.. كيف هذا وأنا أراهم رؤية العين! وقد سمعت حديثهم عني وسألوني إن كنت أراهم أم لا، حتى إنني أجبت بنعم! وأيضًا ألم يشِر إليَّ أحدهم نحو غرفة عم توفيق وأنا تبعته لأراه نائمًا!

رباه! ما هذا الكابوس! أتراني أتخيل ذلك، أم أن كل ما حدث ويحدث ليس سوى هذيان لشخص مصاب بالرعب والخوف منذ الصغر!

هل يُعقل أنني أختلق كل هذا ولا وجود له بالواقع!

هل يعني ذلك أنه لا وجود لهؤلاء الأشباح، وأن ما دار بيننا من حديث لم يكن إلا محض خيال!

تقدمت نحوهم لأقترب أكثر وقد زالت بعض مخاوفي لتحل محلها حيرتي واضطرابي.

وما إن اقتربت منهم، حتى وجدتهم ينصتون بتركيز شديد، وهم يشيرون لبعضهم بالتوقف والهدوء، وأحدهم يشير إلى تلك البقعة التي أقف بها، وهو يقول بحسم: "هنا".

اقترب الآخران إلى حيث أشار، وهم يؤمنون على كلامه، أصابتني الحيرة والدهشة أكثر، فأنا لا أدري حقًّا ماذا يقصد بقوله هذا أو على ماذا يؤيدونه!

أشرت لصدري وأنا أردد بصوت عالٍ:

ـ "أنا هنا، هل ترونني؟ أنا أقف أمامكم". ولكن دون جدوى.

تجرأت أكثر ودخلت بينهم محاولًا جذب أحدهم من كفنه، ولكنني تجاوزته وتجاوزتهم كالهواء.

كررت محاولتي أكثر من مرة بلا جدوى، مما سبب لي الإحباط.

وهل جننت يا عماد! هم ليسوا سوى أشباح، فكيف ستلمسهم!

هنا راودتني فكرة، ظننتها ستلفت أنظارهم إليّ وستؤكد لي إن كانوا يرونني كما أراهم أم لا: توجهت نحو ثلاجة المشرحة، وقمت بفتح جميع الأدراج محدثًا ضجة عالية وصخبًا.

نظرت نحوهم لأرى ردة فعلهم، يبدو أن حيلتي قد نجحت، فها هم يتقدمون نحوي بخطوات حثيثة، وهم يشيرون نحو الثلاجة وإلى حيث أقف مباشرة ليقول أحدهم بخيفة وتوجس: "هنا"!

يا الله! ماذا يقصدون بذلك! وما معنى قولهم (هنا)!

أصابني اليأس من فهم ما يحدث لي، وما يدور من حولي.. لم يكن أمامي سوى الانتظار حتى يفيق عم توفيق، أو يأتي زميلي بالعمل عندما تنتهي مناوبتي.

استدرت نحو الثلاجة لأغلق أدراجها المبعثرة دون أي مبالاة بهم، حتى إنني تجاهلتهم وكأنهم غير مرئيين لي، فمما لا شك فيه أن هناك شيئًا لا أفهمه.. نعم هناك حلقة مفقودة.

بلا شك الأمر لن يتعدى أحد احتمالين لا ثالث لهما: أولهما أنني لست هنا، ولم يحدث أي شيء مما تخيلته حتى الآن.. نعم ربما أنني نائم الآن بمكان آخر، وما هذا إلا كابوس مرعب.

الأمر الثاني أنني بالفعل هنا، ولكن خيالي هو من يختلق كل هذه الصور والأصوات، وذلك نتاج خوفي وهلعي الشديدين وبتأثير من هلاوسي السمعية والبصرية.

أنهيت رص الأدراج لتعود كما كانت واستدرت لأستند بظهري على جدار الثلاجة، وما كدت أفعل حتى وجدت زميلي بشركة الأمن (وليد) يتقدم نحوي وعلى وجهه الشاحب ابتسامة باهتة.

تنفست الصعداء وأنا أراه أمامي كالغريق الذي يتعلق بقشة كما يقولون.. توجهت نحوه بود ولهفة، وأنا أقول بترحاب مهللًا: "أخيرًا أتيت يا رجل"!

وليد بأسى وبنفس النظرة الشاحبة على وجهه:

- "كيف أتيت إلى هنا يا عماد"؟
- "لا يهم كيف أتيت أنا، ولكن المهم أنك أنت أتيت يا صديقي، فأنا وحدي وأكاد أُجن منذ منتصف الليل، وربما أكون جننت حقًا".
- "كيف أتيت"؟ قالها بنبرة متألمة.
- "لا شيء، كالعادة لقد تم توزيعي هنا لأستلم مناوبتي، ولقد عانيت الأمرين منذ حضرت يا صديقي".

منذ الأمس وأنا بانتظار من سيأتي صباحًا ليحل محلي.. لا أدري لماذا راودني إحساس غريب ومريب، الوقت ما زال مبكرًا جدًّا لبزوغ الصباح، كذلك باب المشرحة ما زال مغلقًا، وذلك الكلب أو أيًّا ما كان ما زال جاثمًا أمامه فكيف دخل وليد.. بل لماذا أتى مبكرًا هكذا! وكيف دلف للداخل دون أن يطرق الباب أو يفتحه!

استدرت بظهري وأنا أتساءل بخوف وحيرة متسائلًا بشك: هل أختلق وجود وليد هنا!

اقتربت من الثلاجة لأحدق بها، لأرى (وليد) من خلالها، ولكنه ليس موجودًا، فأنا لا أرى أي انعكاس له.. إذًا أنا بالفعل أختلق هذا، ووليد ليس معي وليس متواجدًا بالغرفة.

وضعت يداي فوق رأسي لأعتصرها بشدة مرددًا: ما هذا الجنون! ما هذا الجنون!

ما إن رفعت يداي عن رأسي حتى وجدت (وليد) يقف أمامي مباشرة، وهو يربت على كتفي بيديه قائلًا: "رفقًا بنفسك يا صديقي.. هون عليك يا عماد"!

نظرت إليه بتوجس وخيفة، وأنا أسأله بقلق: "هل أنت موجود هنا حقًّا"؟

- "نعم يا عماد! أنا موجود وأنت أيضًا موجود".
- "ولكن، كيف؟ ولماذا أتيت مبكرًا؟ هل لديك تفسير لما يحدث من حولي أنا سأجن حقًّا"؟

صمت وليد وصمت أنا أيضًا، ليستمر الصمت بيننا لدقائق كانت كافية لأعود بذاكرتي للوراء لأتذكر صداقتي بوليد، والتي بدأت بتقدمنا سويًّا للعمل بشركة الأمن بعد فشلنا بإيجاد عمل يناسب مؤهلاتنا.

كان وليد الأقرب لي من بين الجميع، وكم حزنت عليه عندما طالته يد الغدر ليتم قتله أثناء مرافقته لسيارة الأموال عندما تم اعتراضها من قِبَل اللصوص لسرقة الأموال نعم حزنت عليه، وتملكني الحزن، وسرى الألم بكل أوصالي، وأنا أردد بصوت مرتجف: وليد ميت! وليد ميت! نعم مات صديقي وليد أثناء هجوم اللصوص على سيارة الأموال!

يا الله! هذا يعني حقًّا أنني أختلق وجوده هنا، وأنه ليس موجودًا.

ما هذا الجنون، عقلي يكاد ينفجر.

شعرت بيد تربت على جسدي وصوت وليد يأتيني بحزن وألم: "نعم يا صديقي أنا ميت".

نظرت إليه بخوف وقلق: "إذًا أنت لست سوى شبح".

وليد وهو يمد يده ليتناول يدي، ويتوجه نحو الثلاجة قائلًا لي: "عندما نظرت بمرآة الثلاجة ألم تنتبه لشيء".

ـ "نعم لم أرَ انعكاس صورتك بالمرآة، وهذا لأنك لست سوى روح أو شبح، ولكن..."!

وليد وهو يشير نحو معدن الثلاجة اللامع مردداً بألم: "أنظر إليك هل ترى شيئًا»؟

اقتربت نحو الثلاجة ممعنًا النظر لأتبين ملامحي، ولكن معدن الثلاجة لم يعكس لي سوى تلك الأشباح الثلاثة، والتي ما زالت تشير نحوي أنا ووليد، وهم يقولون: "هناك" وبتلك البقعة تزداد الحرارة بالقرب من الثلاجة.

ولكن مهلًا ماذا يعني كل هذا!

وضعت رأسي بين كفي وأنا أكاد أعتصرها مردداً: "كل هذا ليس سوى كابوس.. نعم كابووووووووس، وعما قليل سأفيق".

أو ربما.. ربما أنني أختلق كل ذلك، فلا وجود لوليد أو لأولئك الأشباح، وما هذا إلا من نسج خيالي وهلاوسي.

أتاني صوت وليد صارخًا وهو يهزني بعنف ويردد: "أنت ميت.. أنت ميت.. ميت"!

دفعته عني بعيدًا، وأنا أصرخ بشدة: "أنت لست هنا! أنت لست موجودًا إلا بخيالي أنا فقط"!

ضحكات متتالية وقهقهة عالية صدرت مني رغمًا عني، والدموع تنساب على وجنتي، ما هذا الجنون! ما هذا الجنون!

فقال وليد: "رفقًا بنفسك يا صديقي! فأنت لم تختر ذلك".

ـ "ابتعد عني ولا تقترب.. أنا أحذرك من الاقتراب مني".

ـ "أنا هنا يا صديقي.. ولن أتركك أبدًا، ولكن يجب عليك أن تدرك تلك الحقيقة".

- "أنا حي.. أنا موجود.. وأنت شبح، وهناك ثلاثة أشباح هناك".
- "تعالَ يا صديقي وستفهم كل شيء".

جلس الاثنان بالقرب من طاولة التشريح ليتحدث وليد قائلًا بحزن: "ما دمت تراني وأنا أراك فأنت ميت".

- "وماذا عن الأشباح الثلاثة"؟ وأشار إليهم.
- "نحن فقط من نراهم، أما هم فيشعرون بأرواحنا فقط دون أن يرونا".
- "وماذا يعني ذلك؟ ولماذا يرتدون تلك الأكفان البيضاء"؟
- "من تراهم ليسوا سوى الطبيب الشرعي ومساعديه.. وهم يرتدون زيهم الأبيض الخاص بالتشريح، كما أنهم يضعون الكمامات على أنوفهم للوقاية. هم مازالوا على قيد الحياة يا صديقي، بينما نحن ميتون، هم ما زالوا ينتمون للبشر، بينما نحن أرواح بلا جسد".

سالت الدموع من وجنتي عماد، وهو يردد: "ولكنني لم أعش حياتي كما أحب.. فما زال أمامي الكثير لم أفعله، أنا لم أحقق ما أريد من حياتي: هناك زوجتي وأولادي وعملي.. هناك حياة لم أعشها.. كما أنني لست مستعدًا للقاء ربي، فأنا لم أظن أنني سأموت مبكرًا و... و.. و.. و...".

هنا لم يتمالك نفسه وهو يقول: "ليتني أعود فأصحح أخطائي، ليتني أعود فأعوض ما فاتني، ليتني أعود فـ.....".!

لم يكمل عبارته حتى فتح باب المشرحة ليدخل (عم توفيق)، والذي ألقى التحية على الأطباء وهو يتثاءب وأثر النعاس ما زال بعينيه.

الطبيب الشرعي وهو يوجه كلامه لعم توفيق ممازحًا: "لا أدري كيف تستطيع النوم العميق بالمشرحة، وبجوار ثلاجة الموتى"!

عم توفيق وهو يرد ضاحكًا: "كان ذلك بالأسبوع الأول من عملي هنا، أما الآن فالجثث أصحابي، حتى إنني أكلمهم ويكلموني. دول غلابه يا بيه.. اتظلموا وهما عايشين واتظلموا ميتين، وربنا بس اللي هينصفهم"!

- الطبيب الشرعي مؤمنًا على قوله وهو يقول بجدية: "ماذا لدينا اليوم"؟

فقال عم توفيق بحزن بدا على صوته، وهو يقول متأثرًا: "هناك جثة لشاب تم قتله أثناء مناوبته بشركة مقاولات تم السطو عليها من قبل اللصوص".

- الطبيب الشرعي: "ولكنني لا أرى أي جثث بالثلاجة"!
- "سأحضرها، فما زالت بالخارج بسيارة الإسعاف، والجو بره ثلج يعني زي الثلاجة وأكثر".

ألقى عبارته وخرج مباشرة ليتبعه عماد للخارج في ذهول؛ ليراه وهو يجاهد ليخرج تلك النقالة وعليها جسد مسجى، عندما اقترب أكثر تبين ملامح الجثة بوضوح والتي لم تكن سوى جثته هو.

بحسرة وألم ألقى النظرة الأخيرة على وجهه الملطخ بالدماء، نتيجة ذلك الطلق الناري، والذي استقر برقبته مباشرة.